السفير
www.assafir.com © 2010 جريدة السفير

منحها «مركز الخيام» وسام «أجمل الأمهات »

عذراً أم عزيز ..لأن عيدك ما زال ناقصاً

أم عزيز تتسلم الوسام من مدير المركز محمد صفا.. وإلى جانبها أحباؤها الأربعة المفقودون (فادي أبو غليوم)

يوسف حاج علي

نشر هذا المقال في جريدة السفير بتاريخ **2010-03-17**على الصفحة رقم 6 – لبنان

مضت ثمانية وعشرون عاماً. لكن دموع السيدة الفلسطينية السبعينية تنساب الآن على خديها كأن الشبان الأربعة اختطفوا من حضنها صباح أمس بالضبط. لم تمل العينان من الدمع، ولم يجف ملحهما. الأم لا تمل، ولا تسلّم. والزمن لا يعني شيئاً في روزنامة القلب. يظل تفصيلاً .

تعيش أم عزيز، كأن أبناءها الأربعة عزيز وابراهيم ومنصور وأحمد ديراوي سيفتحون الباب ويدخلون إلى منزل العائلة، في مخيم برج البراجنة، في أي لحظة. عندما تنام على سريرها، تترك نافذتها مفتوحة، ولو الطقس شتاء، وتضع الإطار الذي يحتضن صور الأربعة إلى جانبها .

إذا عاد أي منهم، تسمع وقع خطواته. الأم تظل تميّز وقع خطى أبنائها، مهما كبروا، أو تأخروا. تتحدث معهم. تقول لهم: «بشوفكم يمّا».

ما زال التاريخ حاضراً في الذاكرة. السابع عشر من أيلول العام 1982، «كان يوم جمعة.

قبلها بيومين، اغتيل بشير الجميل. يوم الأربعاء، أقفلت المنطقة. ويوم الخميس، بدأ عناصر ميليشيات «القوات اللبنانية» بتغيير طلاء شاحناتهم لتصبح شبيهة بتلك التي يستخدمها الجيش. ثم بدأوا بالهجوم على صبرا وشاتيلا».

المشهد ما زال واضحاً بأدق تفاصيله .

كان منصور قد ذهب لشراء علبة حليب لطفلته، فأوقفه ثلاثة مسلحين .وبعدما أبلغهم بسبب تجوله، عادوا معه إلى حيث تواجد الجميع. من بناية جواد الشلبي قرب بناية الأمم المتحدة عند نزلة السفارة الكويتية، أنزل الشبان. لم يشفع لأحمد سنه المراهق (13 سنة). ولم يشفع لأخوته الثلاثة أنهم أرباب أسر (لعزيز 5 أطفال، ولإبراهيم طفلان، ولمنصور طفلة). أنزل الجميع من البناء الذي كانوا يختبئون فيه هرباً من القصف الذي يتعرض له مخيم برج البراجنة، بمن فيهم النساء والأطفال .

تتذكر: «لم يسمحوا لعزيز بأن يحضر هويته من البنطلون. أنزلوه ببنطلون الرياضة، والبروتيل، والحفّاية الزنزوبا..». وبعدما توسّط أحد الجيران، أبو عاطف، وتلقى صفعة على وجهه، سمحوا للنساء والأطفال بالمغادرة .

نُقل الأخوة الأربعة في إحدى الشاحنات، وتلقوا ضرباً مبرحاً ودهساً على رؤوسهم. ومن الثامنة صباحاً حتى الثالثة من بعد الظهر، ظلت الشاحنة، وهي واحدة من اثنتين تم ملؤهما بالشبان، في مكانها :«كان الرجل يبول في مكانه من دون أن يسمحوا له بالتحرك. ركضت لأبحث عمن ينقذهم يومها. لم أجد أحداً. حاولت أن أنقذ واحداً أو اثنين منهم، فلم استطع. لو كنت أعرف أني لن أراهم مجدداً، لرميت بنفسي تحت إطارات الشاحنة».

وعندما أقلعت الشاحنتان، بمواكبة عسكرية، إلى مطار بيروت الدولي، بدأت رحلة انتظار طويل، في حياة أم عزيز، لم تنته حتى اليوم .

المرأة لن تتعب، رغم ضيق الأنفاس وما أدخله العلم إلى القلب من قطع طبية. هناك فراغ في القلب، لا يفهمه الطب. الفراغ نفسه الذي يجعلها تمشي من منطقة الحمام العسكري إلى منطقة البربير، على قدميها، حتى تُسمع الناس صرختها .الفراغ نفسه الذي يجعل معظم أرصفة الشوارع ومواقع الاعتصامات تحفظ نعليها ونعال أمهات كثيرات مثلها. أمهات جميلات. ولأنها حملت الثقل مضاعفاً أربع مرات، كانت أجملهن .

لذلك، ارتأى «مركز الخيام لتأهيل ضحايا العنف والتعذيب»، بمبادرة لطيفة، تكريمها في عيد الأم، ومنحها وسام «أجمل الأمهات».

تحية لك أم عزيز في عيد الأمهات.. واعذرينا، لأنه ما زال ناقصاً. فكبارنا ما زالوا يرفضون أن يسمعوا .صراخك وصراخ الأمهات الأخريات لن يصل إلى طاولة حوارهم .